سلسلة المقالات المنهجية

(٢٠)

فِقْهُ عَدَمِ الإِدْرَاكِ وإِدْرَاكِ العَدَمِ

كتبه

الدكتور عيد بن أبي السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

«مُقدمة»

الحمد للَّه ربّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا علىٰ الظالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا اللَّه، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ أمَّا بعد: فهذه مقدمة فيها بيان مفردات عنوان المقالة.

روىٰ البخاري في «صحيحه» (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من يُرد اللَّه به خيرًا يفقّهه في الدِّين**».

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (١/ ٢١١):

«قوله: «يفقّهه»؛ أي: يفهمه، . . . . ومفهوم الحديث: أنَّ من لم يتفقه في الدين، أي: يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع فقد حُرِمَ الخير، وقد أخرج أبو يعلىٰ حديث معاوية من وجه آخر ضعيف وزاد آخره: «**ومن لم يتفقه في الدين لم يُبال اللَّه به**»، والمعنىٰ صحيح؛ لأنَّ من لم يَعْرِف أمور دينه لا يكون فقيهًا ولا طالب فقه، فيصح أن يوصف بأنه ما أريد به الخير، وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء علىٰ سائر النَّاس، ولفضل التفقّه في الدين علىٰ سائر العلوم». اهـ.

وذكر السيوطي في: «الجامع الصغير» (٩١٤) وحسّنه، وذكر المُناويّ في «فيض القدير» (٦/ ٢٢١) تحسين ابن حجر له، وقال المنذري في: «الترغيب والترهيب» (١٠٠): رواه البخاري والطبراني في «الكبير» بإسناد لا بأس به، عن ابن مسعود عن النَّبِيّ ﷺ قال: «**من يُرد اللَّهُ به خيّرًا يُفَقّهه في الدين ويلهمه رشده**»، وفي رواية: «**إذا أراد اللَّه بعبدٍ خيرًا**» الحديث.

قال المُناوِيّ في «فيض القدير» (٦/ ٣١٢) شارحًا للحديث:

«قوله: «**من يُرد اللَّهُ به خيرًا**» بالتنكير في سياق الشرط فيعم، أي: من يُرِد اللَّه به جميع الخيرات «**يُفَقّهه**» بسكون الهاء؛ لأنّها جواب الشرط «**في الدين**»؛ أي: يفهمه علم الشريعة بالفقه؛ لأنه علم مستنبط بالقوانين والأدلة والأقيسة والنظر الدقيق، بخلاف علم اللغة والنحو والصرف، روىٰ أنَّ سلمان الفارسي نزل علىٰ نبيطة [يعني: من الأنباط، بلد] بالعراق، فقال: هنا مكان نظيف نصلّي فيه، فقالت: طهّر قلبك وصلّ حيث شئت، فقال: فقهت؛ أي: فهمت، قوله: «**ويلهمه رشده**»، فإن التفقه في الدين علامة علىٰ حُسْن الخاتِمة». اهـ.

ثُمَّ ذكر السيوطي في: «الجامع الصغير» (**٩١٠٥**) عن السجزي وحسّنه مِنْ حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ: «**من يُرد اللَّه يَهْدِهِ يفهِمْه**».

- **أمَّا بيان الفهم:**

قال الراغب الأصفهاني في: (المفردات في غريب القرآن» (ص: ٣٨٦):

«الفهم هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يُحسن، يُقال فهِمْتُ كذا، وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وذلك إمَّا بأن جعل اللَّه له من فضل قوّة الفهم ما أدرك به ذلك، وإمَّا بأن ألقىٰ ذلك في رُوعِه، أوْ بأن أوحىٰ إليه وخصّه به، وأفهمهُ، إذا قلت له حتىٰ تَصوَّرَهُ، والاستفهام أنْ يطلب من غيره أن يفهمه». اهـ.

وقال الجرجاني في: «التعريفات» (ص: ١٤٨):

«الفم: تصوُّر المعنىٰ من لفظ المخاطِب». اهـ.

وقال محمد الرَّازي في: «مختار الصَّحَّاح» (ص: ٥١٣):

«فَهِم الشيء فهْمًا وفِهَامة أي علمه، وتفهّم الكلام فَهِمَهُ شيئًا بعد شيء». اهـ.

● **أمَّا بيان الأدراك:**

وقال في: «مختار الصحاح» (ص: ٢٠٣):

«الإدراك اللحاق، يُقال مَشَىٰ حتىٰ أدْركه، وعاش حتىٰ أدرك زمانه، وأدركه ببصره؛ أي: رآه، وأدرك الغلامُ والثمرُ؛ أي: بلغ، واستدرك ما فات وتداركه بمعنًىٰ واحد، وتدارك القوم تلاحقوا؛ أي: لحق آخرهم أوَّلهم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٢٨]». اهـ

وقال الأصبهاني في «المفردات» (ص: ١٦٧، ١٦٨):

«ويُقال للحبل الذي يُوْصَلُ به حبل آخر ليُدّرِك الماء: دَرَكٌ . . . وقوله تعالىٰ: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، قال الحسن: معناه جهلوا أمر الآخرة وحقيقته، انتهىٰ علمهم في لحقوق الآخرة فجهلوها، وقيل: معناه بل يُدْرِكُ عِلْمهم في الآخرة أي: إذا تساووا في الآخرة، لأنَّ ما يكون ظنونًا في الدنيا، فهو في الآخرة يقين». اهـ.

وقال الجُرّجَاني في: «التعريفات» (ص: ٩):

«الإدراك إحاطة الشيء بكماله كذلك الإدراك: حصول الصورة عند النفس الناطقة». اهـ.

● **أمَّا الفقه: قال الجرجاني في: «التعريفات» (ص: ١٤٧):**

«الفقه في اللغة: عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه، وفي الاصطلاح الفقهي: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلّتها التفصيلية، وقيل: هو الإصابة والوقوف علىٰ المعنىٰ الخفي الذي يتعلق به الحكم، وهو علم مستنبط بالرأي والاجتهاد، ويحتاج فيه إلىٰ النظر والتأمّل». اهـ.

- **ما قامت عليه محاور المقالة:**

- قلت: فإذا كان ذلك كذلك، فهذه مقدمة أردت بها بيان مفردات عنوان الكتاب، حتىٰ يتم حسن التصور المراد من هذه المقالة؛ علىٰ ضوء القاعدة الكلّية: «**الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوّره**»، فالفهم قوة تؤدّي إلىٰ إدراك المراد والإحاطة به لفظًا ومعنًىٰ وتصوّرًا وبالإدراك المستقيم يُتَوَصَّل به إلىٰ الإصابة والوقوف علىٰ المعاني الخفيّة التي بها تتعلق الأحكام ويُفقه المخاطِب، وتتكشف الدلالات وتظهر، ويستقيم الإدراك الذي يُؤدّي إلىٰ الوعي المطلوب والمقاصد المرجوة.

- وعليه، فلقد أقمت هذه المقالة بعد مقدمتها علىٰ محاور:

المحور الأول: كيفية حصول عدم الإدراك لمن لا يتصور أنه غير مدرك للمسألة التي خاض فيها، وتحته جملة من التفريعات المهمة، وستأتي بإذن اللَّه في محلّها.

المحور الثاني: العلاقة بين الفهم والإدراك سلبًا وإيجابًا.

وبيان مفردات هذا المحور وعناصره.

المحور الثالث: بيان إدراك العدم وكشفه، وفيه أمور مهمة ستظهر مُفَصَّلة.

المحور الرابع: فقه إدراك صفة المَصْلحَة وكنهها وما هي؟ وبه خلاصة الطَّرْح، واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

- **المحور الأول: كيفية حصول عدم الإدراك لمن لا يتصور أنَّه غير مدرك للمسألة التي يخوض فيها:**

وصورة هذا المحور ووجهه: القاعدة المتفق عليها عقلًا وشرعًا: «**الحكم علىٰ الشيْء فرعٌ عن تصوره**»، وقد فصّلت القول فيها في «**سلسلة المقالات**

الفقهية الأصولية»، وهذه المقالة برمَّتها فرع لهذه القاعدة الكليّة؛ لأنَّ من أراد أن يقف علىٰ حكم أي مسألة، لابدَّ أن يكون ألمَّ بها وأحاطها علمًا، وفهمًا، وفقهًا، بعد الدراسة والتحقيق والتقصّي والتدبّر وكمال الوعي، ويكون كذلك جمع مادة هذه المسألة من الأسباب والشروط والأركان والموانع والعلل، ومعرفة الأدلة والذي صح والذي لم يصح، ودفع التعارض إن وُجِد، وذلك يكون بمعرفة مطلقها ومقيدها، وعامها وخاصها، ومُجملها ومبيّنها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، ومنطوقها ومفهومها، لأنَّ تصور كل تلك المعطيات؛ يؤدي إلىٰ الحكم الصحيح المعتبر علىٰ الأسس العلمية الرَّصِينة؛ إذ هو السبيل إلىٰ إتمام الإدراك لما أُريد إدراكه.

- **الخلل في منظومة الإدراك وتأثيرها على الكمال والنقص، أو الإصابة والخطأ:**

ومن ثَمَّ؛ فإنَّ حدوث الخلل في المنظومة يُحْدِث التَّخبُّط والزلل في المعرفة، ويظهر عدم نجاعة التقارير والبتّ فيها، ومعرفة الحق من الباطل، والراجح من المرجوح، وعدم استقرار الفهم علىٰ محاور صُلبة، وهشاشة الفكر القائم علىٰ نضوب التحقيق السليم، ومن أهمها القصور في استيعاب العلل والأسباب مع اعتبار الموانع، «**فالحكم يدور مع علته عودًا وعدمًا**»، فإذا وُجدت العلة وجد الحكم، وإذا انتفت العلة انتفىٰ الحكم، فهذا من أهم الأسباب لنجاعة وتأثير الإصابة، أو الفشل.

- **ذكر الأدلة على هذه المنظومة:**

وذلك لأنَّ الذي أراد أن يحقق شأنًا من الشئون، أو أمرًا من الأمور، وقد قام تحقيقه ذلك علىٰ جُرفٍ هار متهالك، وتأسيس مزعزع غير مُتمكن، فهذا لا يصل به الأمر إلَّا إلىٰ الفشل والسراب، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ

مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] فبعموم هذه الآية؛ لأنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وهذه قاعدة مجمع عليها من لدن الصحابة ﷺ، فيُؤخذ عموم هذه الآية علىٰ كل أمر أريد إدراكه إدراكًا سليمًا مستقيمًا صحيحًا، يثمر فكرًا بناء، وقرارات تقوم عليها مصالح المسلمين.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، والسراب هنا: ضبابيّة الفكر والفهم والطرح والمباشرة والسَّبَبُ والوعي والإدراك.

• ففي خضم هذه الضبابية، وهذا السراب، وقيام البناء علىٰ الجرف المتهالك علمًا وتصورًا، يحدث ويحصل عدم الإدراك لمن لم يتصور أنَّه لا يدرك، وغير مُستوعب لتفاصيل أسباب النجاح والفشل، **فهذا نموذج لمن لا يدرك أنه غير مدرك**، كما قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

• ثُمَّ هذا كله في سياق حسن النّية، يعني: الأصل في صحة الفهم والإدراك حسن النية، وخلوص العمل للَّه والصالح العام للعباد والبلاد، فلا تنجع صحة النّية مع عدم الأخذ بأسباب وعلل الإدراك، لما أُريد تحقيقه والظفر به، إذْ المعوّل عليه: صلاحية المحقِّق بأن يكون أهلًا للتحقيق وقادرًا عليه، أمَّا حسن النية وصحتها مع عدم الكفاءة العلمية في أي شأن دخل فيه الباحث في مسألة ما لا يثمر شيئًا، كمن عبد اللَّه ببدعة منكرة؛ فهذا أراد الثواب من اللَّه، وما تزيده بدعته إلَّا بُعدًا من اللَّه، لأنه لم يتلمَّس الطريق الصواب المؤدِّي إلىٰ النتائج المرجوّة، ومن الأقوال المشهورة عند النَّاس: «**الطريق إلىٰ جهنّم مفروش بُحسن النوايا**».

• ولا أدلَّ علىٰ ذلك من الحديث المتفق عليه عند البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها قال رسول اللَّه ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»، وإن كان هذا الحديث في البدعة والسنَّة، فهو بعموم لفظه يُستدل به علىٰ ما نحن فيه من هذا السياق؛ يعني: كل من عمل عملًا علىٰ غير الصواب فهو مردود باطل لا صلاح فيه ولا نفع، بل ليس فيه إلَّا الفساد، وهذا مجمع عليه عند العقلاء فضلًا من أهل العلم سلفًا وخلفًا.

• وقال اللَّه تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فقد روىٰ الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في «حلية الأولياء» (٨/ ٨٧، ٨٨، حديث (١١٤٨٧)) عن الفضيل بن عياض في تفسير هذه الآية قال: «لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا، والخالص إذا كان للَّه، والصواب إذا كان علىٰ السُّنة».

ووجه هذا الأثر للفضيل، نفس وجه الحديث السابق آنفًا: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**».

• وعلىٰ ضوء ما قيل آنفًا، يحدث الوعي الحقيقي فيما يحدث بين النَّاس أجمعين في جدالهم وحوارهم في جميع شئونهم وأمورهم، فكل أحد يتكلّم بما عنده من هذه المنظومة المُفصّلة آنفًا سلبًا وإيجابًا، زيادة ونقصانًا، فمن أحاط علمًا، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يونس: ٧٦]، أسباب الإدراك وعَلِمَ ما يُدّرك به كان مدركًا أنه مدرك وظفر بالحق والصواب والإصابة، وهو مَن تَم عنده الإدراك الحق، ومن أحاط بجزء من ذلك قلّ أو كثر ولم يكتمل عنده التحقيق، فإنه قد جمع بين الصواب والخطأ، فيكون مدركًا لبعضه، ومُخطئًا للبعض الآخر، وهو فيما أخطأه غير مدرك؛ وهو لا شعر لوجود الخلل في منظومة الإدراك.

• **كيف ترجو ممن لا يدرك أن يدرك؟!** قاعدة قعّدتها علىٰ فَهْم ما مرّ في هذا المحور:

ثُمَّ يترتب علىٰ ما حققته في هذه المنظومة العلمية الرشيدة، علىٰ مَنْ فَهِمَ وفَقه، أن يقول الحصيف الفطِن هذه المقولة القائمة علىٰ ما استدللت له: «**كيف تريد ممن لا يدرك أن يدرك؟**»، وهذه قاعدة أقعّدها لتبين المراد الذي ابتغيته وأردت كشفه؛ لأنَّ ذلك يؤهّلك لمعرفة علم الفوارق بين الخلق، وإظهار مراتب ودرجات الفهم والإدراك بين المجادلين والمتحاورين، بعلم ووعي وحسن تصور فيدرك متىٰ تُكمِلُ المجادلة ومتىٰ تتوقف فيها؟ وهذا من خلال فهمك لمن أراد أن يخوض في مسألة من المسائل معك؛ حينها تطرحُ علىٰ نفسك هذه الأسئلة وأنت قد قطعت معه شوطًا في الفصْل والترجيح: هل هو مُدْرك لما تقول إن كنت أنت ألممت بمنظومة الإدراك ابتداء، وهل هو في نفسه مدرك لما يقول؟ أم وجد فيه خلل في المنظومة؟

أم ليس ثَمَّ إدراك منه ابتداء؟ وهذا يعرف وتكتشفه في مراتب الجدال فيما خضتما فيه، وهل هو مدرك ويعلم ثُمَّ جحد وأنكر وأعرض عن الحق وأصرَّ علىٰ الباطل؟.

فإذا أدركت أنه مُدَرك فأكمل معه جدالك للوصول إلىٰ الحق، فإنكما لا تصلا إلىٰ الحق حتىٰ تكتمل هذه المنظومة عندك وعنده.

وإن أدركت أنه مُخَتلط عليه أمره فعليك أن تبذل الجهد في تفهيمه وإزالة الغموض والضبابية حتىٰ تلتقيا، ثُمَّ تتفقا أو تختلفا علىٰ وفق الأصول العلمية المؤدية إلىٰ استنباط الحق من الباطل.

وإن كان الأمر بينكما التضاد والخلاف بسبب إدراكك وعدم إدراكه ابتداءً، فكنت أنت في وادٍ وهو في وادٍ آخر، فمن العبث أن تُضيِّع جهدك وفكرك في حلب شاة لا لبن فيها، أو بالأحرىٰ لا ضرع لها ابتداءً.

● **بيان أصول قانون الحوار والجدال:**

وذلك؛ لأنَّ اللَّه تعالىٰ قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وإنَّما تقال هذه الآية فيمن جحد وأنكر بعد العلم والمعرفة حيث أدرك وعرف ثُمَّ أعرض عن علم، فهذا قد كفاك اللَّه شره وخبث نفسه وطويته، قال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [البقرة: ٦٥]، وقال: ﴿فَقُلْنَا هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ [القصص: ٧٥].

● وقال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] فهذه الآية فيها قانون الجدال والحوار علىٰ أصول الحق.

قال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ١٧٠):

«هذا تأديب من اللَّه لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنَّه ينبغي، لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامّة مما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مُصيبة عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردّونه إلىٰ الرسول وإلىٰ أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنّصح والعقل والرّزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدّها، فإذا رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم، وتحرّزا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة، أو فيه مصلحة ولكن مضرّته تزيد علىٰ مصلحته لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة وعلومهم الرشيدة.

• وفي هذا دليل لقاعدة أدبية وهي: أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يُولَّىٰ من هو أهل لذلك، ويُجعل إلىٰ أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلىٰ الصواب وأحْرَىٰ للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرّع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمّل قبل الكلام والنّظر فيه، هل هو مصلحة فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه؟». اهـ.

وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وعليه، فإنَّ هذا المحور تأسيس لأوّل عروة ودعامة للنهوض بالبيان الموضح للمقصود من الكلام والطرح وفكرة البحث، من خلال كيفية حصول الإدراك وعدمه، وإظهار الخلل وتأثيره، وذكر الأدلة علىٰ هذه المنظومة، ثُمَّ هذا التقعيد في المسألة في شكْل سؤال: كيف ترجو ممن لا يدرك أن يدرك؟ فهل تُحْلَبُ شاةٌ لا ضرع فيها؟! أو جفَّ لبنُها؟!

• **المحور الثاني: العلاقة بين الفهم والإدراك سلبًا وإيجابًا:**

وكلاهما منزلة للارتقاء للمقصود، قد ذكرت في المقدمة معاني الألفاظ التي كانت في عنوان المقالة من الفقه والفهم والإدراك، وبينت كلام أهل العلم من أنَّ قوة الفهم هي التي تُعين وتساعد علىٰ صحة الإدراك وكماله؛ وإنَّما يكون الفهم مستقرًّا عندما يُفهم، حتىٰ يتصور هذا الأمر تصوّرًا سليمًا يترتب عليه إدراك الأحكام المتعلقة بهذا الأمر، فكلما ثبت الفهم المعتبر المقصود، أدَّىٰ ذلك إلىٰ استواء الإدراك، وكلما تزعزع ولم يثبت ويتيقّن قل الإدراك وحَدَثَ التخبّط والبلبلة والاضطراب.

وهذا ما كان من حال الأنبياء والمرسلين -صلىٰ اللَّه وسلم عليهم أجمعين-،

قال اللَّه تعالىٰ علىٰ لسان نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٩ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٣٣ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٣٤ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ﴾ [هود: ٢٨- ٣٥]، وهذا مثال لما جادل به نوح قومه، ومن بعده كل الأنبياء كما قصَّ القرآن في سورة الأعراف ويونس وهود والعنكبوت وطه، والأنبياء، والشعراء، والقصص، وغيرها الكثير من القرآن، قال تعالىٰ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فما كان من نوح عليه السلام إلَّا إزالة الغشاوة والضبابية والعمىٰ الذي أصابهم حتىٰ يفهموا ويدركوا مراد اللَّه منهم عند قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾، وكذلك قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَ عَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠- ٦٤].

● فسبيل المرسلين التبليغ المُفْهم والحث علىٰ الإدراك والوعي؛ لأنه لا تتم حجة اللَّه علىٰ خلقه إلَّا بحُسن الحجة والمحجة والبرهان والبيّنة التي تبين مراد اللَّه، ولا يكون ذلك إلَّا باستقرار وثبات ويقين الفهم السليم المستقيم، وقال

تعالىٰ علىٰ لسان شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ [الأعراف: ٨٨- ٩٣].

وما ذكرته من نوح وشعيب عليهما السلام، يُرشد إلىٰ الباقي عن الآيات والقصص القرآني.

والشاهد: أنَّ العلاقة بين الفهم والإدراك سلبًا وإيجابًا، وتمام التبليغ بها سلبًا وإيجابًا، وإقامة الحجة وبيان المحجة بها سلبًا، وإيجابًا، وبين ذلك كله تعلم الذي يدرك ويفهم ويُسلم أو يُعرض أو لا يدرك؛ ومن ثَمَّ، فَيَرِدُ علينا بتفصيل هذا المحور الثاني ما قعدته في المحور الأول، حتىٰ يتأكد المحوران، وهو قولي متسائلًا: «**كيف ترجو ممن لا يدرك أن يدرك؟**»؛ إذْ كيف يتم له الإدراك بدون فهم؟ ولن يفهم حتىٰ يتقي اللَّه قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

● قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي هذه الآية سبب للفهم المؤدِّي للهداية.

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٣٧٣):

«وكان أبو العالية يقول: في هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن [رواه ابن جرير في: «تفسيره» (٣/ ٦٣٢، ٦٣٣)]، قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: يعلمه بما هداهم له، قاله ابن جرير.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: وله الحكم والحجّة البالغة وفي «صحيح مسلم» [٧٧٠] عن عائشة: أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «**اللهم ربّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم**».

وفي الدعاء المأثور: «**اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله مُلتّسًا علينا فنضلّ، واجعلنا للمتقين إمامًا**». اهـ.

قلت: هذا الدعاء، رواه النسائي في «الكبرىٰ» (١٠٤٤٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩)، وصححه الألباني في «تحقيق الأدب».

فهذه الآية وهذا الدعاء، وحديث مسلم كما عند ابن كثير، من الأسباب التي تُثمِّرُ صحة الفَهْمِ المؤدية إلىٰ صحة الإدراك واستقامته علىٰ الصراطِ المستقيم.

وقال القرطبيِّ في: «جامعه» (٣/ ٢٧):

«قوله: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾: ﴿فَهَدَى﴾ يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتَمَّ المعنَىٰ في قوله: ﴿فِيهِ﴾، وبيّن بقوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ جنس ما وقع الخلاف فيه.

قال المهدوي: وقدّم لفظ الاختلاف علىٰ لفظ الحق اهتمامًا؛ إذْ العناية إنَّما

هي بذكر الاختلاف». اهـ.

وقال النووي في: «شرح مسلم» (٦/ ٤٣):

«قوله ﷺ: «**اهدني لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك**» معناه: ثَبِّتني عليه، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]». اهـ.

وقال القرطبيّ في: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٢/ ٣١٩):

«**«اهدني»**؛ أي: أرشدني ودلّني علىٰ الصواب ما اختلُف فيه «**بإذنك**»؛ أي: بتمكينك وتسخيرك، والصراط: الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه». اهـ

وقال ابن القيم في «إعلام الموقعين عن ربّ العالمين» (١: ٧١، ٧٧):

«صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نِعم اللَّه التي أنعم بها علىٰ عبده، بل ما أُعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجلّ منهما، بل هما ساقا الإسلام وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسدت قصودهم وفهومهم ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وهم أهل الصراط المستقيم الذين أمرنا أن نسأل اللَّه أن يهدينا صراطهم في كل صلاة.

• وصحة الفهم نور يقذفه اللَّه في قلب العبد، يُميّز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدىٰ والضلال، والغي والرشاد، ويمدّه حسن القصد، وتحري الحق، وتقوىٰ الربّ في السرّ والعلانية، ويقطع مادّته اتباع الهوىٰ، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق وترك التقوىٰ». اهـ.

قلت: هذه أسباب تفصيل الفهم وعدمه سلبًا وإيجابًا ونسْجه بالإدراك كذلك، **ثُمَّ قال**: «ولا يتمكن المفتي ولا القاضي من الفتوىٰ والحكم بالحق إلَّا بالنَّوْعين من الفهم: **أحدهما**: فهم الواقع والفقه فيه واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتىٰ يحيط به علمًا.

والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم اللَّه الذي حكم به في كتابه أو علىٰ لسان رسوله في هذا الواقع، ثُمَّ يطبق أحدهما علىٰ الآخر، فمن بذل جهده واستفرغ وُسْعَه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجرًا، فالعالم من يتوصّل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلىٰ معرفة حكم اللَّه ورسوله». اهـ.

فإذا تقرَّر عند ذلك، يتم الربط بين المحور الأول والثاني بما ذكر ابن القيم من علل وأسباب التوفيق للفهم، والإدراك والهدىٰ، حتىٰ يستقر المراد والمقصود.

- **المحور الثالث: بيان إدراك العدم وكشفه:**

وهذا المحور الثالث من هذا البحث، فبعد أن فصّلت القول في المحورين ظهر منهما المراد بالدليل والتعليل، أردت إتمام الفكرة بالضِدِّيَّة، فبعد بيان فقه عدم الإدراك، أبيّن إدراك العدم:

والمراد به: إنْ فَهِمْتَ أهمية الإدراك وهو الدعامة الأم في تحصيل المسائل العلمية والتحقيق لها، والتقصي في الوصول إلىٰ مراد اللَّه ورسوله، فاعلم أنَّ إدراك العدم هو: خلوّ اليدين من الفائدة العلمية، كِنَاية عن الخسران المبين في المنع من كسب المُلَحِ العلمية، والإحباط الاستنباطي، وهذا يظهر من معرفة مادة العدم، التي هي تأصيل للجهل، الذي يضر ولا ينفع، ومدعاة للإفساد.

قال ابن فارس في: «مقاييس اللغة» (٤/ ٢٤٨):

«العين والدال والميم أصل واحد يدلُّ علىٰ فقدان الشيء وذهابه، من ذلك: العدم، وعَدِمَ فلانٌ الشيء إذا فقده، وأعدمه اللَّهُ تعالىٰ كذا إذا أفاته، والعديم الذي لا مال له، وأعْدَمَ الرجل، صار ذا عدم.

وقال في العديم:

وعَدِيمُنا متعفف مُتكرم   وعلىٰ الغَبيّ ضمانُ حقِّ المُعْدَم

وقال في العدم حسان بن ثابت رضي الله عنه:

رُبَّ حِـلـمٍ أضـاعـه عَـدَمُ الـمـا ... لِ وجهلٍ غَطّىٰ عليه النَّعيمُ». اهـ.

قلت: فالعدم في هذا السياق: الفقر العلمي، وجفاف الفكر والاستخراج، وشُح القلب والعقل، في الإنتاج، وقحط المنع الخالي من الإبداع، فليس عنده شيء، وهو الفقر المعنوي والعدم الفكري، ثُمَّ تسليط الضوء علىٰ هذا العدم وتجسيده أمام المحقق والباحث وصفته وكنهه، ثُمَّ التعامل معه بعلم لإزالته وإحلال الإدراك مكانه.

وكما يُقال: صفر اليدين، لا يملك شيئًا فهو خالي الوفاض وخاليه، تعبير لغوي يستعمل في الجمل الوصفية للدلالة علىٰ نتيجة مُخَيِّبة أو نتيجة منعدمة؛ للدلالة علىٰ أنه تمَّ بذل مجهود للظفر بنتائج إيجابية، أو الحصول علىٰ مستحقَّاتٍ غير بعيدة المنال، لكن العودة كانت بيدين فارغتين، هذا كلام أهل اللغة والمعاني والتعبير عن المراد بالعدم.

والنَّتيجة الحتْمِيَّة بلا مرية فساد الدين والدنيا، قال تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وليس ثَمَّ إلَّا فساد الدين والمنهج، والمعتقد، والأخلاق، والهدي الصالح، وفقدان القدوة، واتباع سَنَنِ من كان قبلنا شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، وانتشار البدع، وخفاء السُّنَنِ، وشيوع الفاحشة وقلة الحياء، والتجرؤ علىٰ المقدّسات والأصول، وتسفيه الدين كتابًا وسُنَّة وإجماعًا، والمبالغة في تعظيم العقول والآراء، واعتبار منظومة الخلاف الفاسد غير المعتبر، الذي ينقض الأصول والنصوص الشرعية، وبركن إلىٰ قول فلان وعلان في الآراء التي زلوا فيها، ثُمَّ تؤخذ وتُنْشر وتعتبر الأصل، فيقلب الحرام حلالًا، والحلال حرامًا، ومسخ الحق والحقيقة، وبث الوهم والجهل والتسفيه والشبهات والشهوات،

وتعظيم الرجال وتتبع زلاتهم عمدًا وإفسادًا لعرىٰ الإسلام، والأصل: لا ينكر المختلف فيه، وإنَّما ينكر المجمع عليه، والأصل: ليس كل خلاف معتبرًا إلَّا ما كان له حظ من النَّظر، والأصل: من تتبع زلات العلماء اجتمع فيه الشر كله، والأصل: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩]، والأصل: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والأصل المتفق عليه: قوله ﷺ: «**إنَّ بين يدي الساعة أيامًا، ينزل فيها الجهل** -وفي رواية: **يبثّ فيها الجهل- ويرفعُ فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل**» رواه البخاري (٧٠٦٣) ومسلم (٢٦٧٢) وهذا أصل فساد الدين والدنيا علىٰ الإطلاق، وبه يستقر عدم الإدراك، والأصل المتفق عليه حديث الصحيحين، والذي بدأت به المقالة؛ قوله ﷺ: «**من يُرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**».

- **الناس بين فقهين بها يكون الصلاح أو الفساد:**

- فالناس بين فقه الدين القائم علىٰ الفهم والإدراك والتصور الصحيح الموافق للكتاب والسنَّة والإجماع، وبين فساد الفهم والتصور والإدراك والوعي، والخلل والنضوب والضبابية والعمىٰ عن مقاصد الشريعة وعللها وأسبابها وموانعها وشروطها.

فالمسلمون بين فقْهيْن: فقه الدين وفقه عدم الإدراك في الدين، بين فقه الفهم والعلم، وفقه عدم الإدْراك بهما، فتكتمل منظومة الضّياع العلمي، والبث التجهيليّ، والرسوخ العدمي، وغياب الاستنباط وذهاب الفكر، ونضوب القريحة، وفساد القصد، وتلبّس الحق بالباطل، والهدىٰ بالضلال، والسنَّة بالبدعة، وهلاك الدنيا والدين.

وعلىٰ ضوء ما كان من المحور الثالث نختم بالمحور الرابع وفيه خلاصة القول وشفافية الطرح فإليك هو :

● **المحور الرابع: فقه إدراك صفة المصلحة وكُنهها وما هي؟**

لمَّا كانت الشريعة قائمة كلها علىٰ جلب المصلحة ودفع المفسدة، توجَّب علىٰ المُدْرِكين تعَرُّف صفة المصلحة، ما هي؟ وما المراد منها؟ وهذا فقه الراسخين في العلم وصحة تصوره، فاعلم أنَّ عامة أهل العلم علىٰ أنَّ المَصْلَحَة هي المَنفَعَة لغَةً وشرعًا، فكان كل ما ينفع النَّاس مصلحة، وكل مصلحة هي ما ينتفع بها النَّاس، والعبرة في القعود بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني، لذلك قعَد أهل العلم : «**إنَّ الألفاظ قوالبُ المعاني**».

فإذا أدركت ما هي المصلحة، فلابد لاكتمال التصور والإدراك والفهم، أن يتفحّص العقلاء علل المصالح؛ فإنَّ الحكم يدور مع علتّه وجودًا وعدمًا، فإذا وُجِدَت العلِّة وجد الحكم، وإذا انتفت العلّة انتفىٰ الحكم، فدعك من القوالب وانظر إلىٰ المعاني بتدبّر وتفقه؛ فإنَّه مراد اللَّه ورسوله.

● والمقصود هنا : إدراك ما يُصلح النَّاس وما يُفسده، فإن اختلط عليك هذا المعيار، فَسَدَ عندك الإدراك والتصور لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وصِرت في تخبط واعوجاج مستمر وذلك بخلوّك عن الفهم المستقيم لحقيقة المصلحة، ففساد التحقيق وعدم تقصي المقاصد والمعاني يؤدي بالرجال إلىٰ الهلاك العام، والفساد العريض، حتىٰ تنصلح عندك صفة المقصود بالمصلحة، وإن ادّعيت أنها مصلحة، فليس العبرة بالادعاء، وإنَّما العبرة في القصود والفهوم، القائمة علىٰ الإدراك العلمي المؤسس علىٰ منهج عقلاء المُصلحين ذوي الخبرة والفكر المستقيم، والرسوخ، في التحقيق، والنظر إلىٰ المآلات والعواقب، واليقين بضرورة استيعاب المقاصد الشرعية، التي بها حتمًا ولزامًا سيعرف العقلاء ما المصلحة

وما المفسدة، فقد تُتَصَوَّر عند بعض العقلاء في نفع النَّاس بنيّة حسنة، الإصلاح في شأن ما، أو أمر معين، وهو في نفسه فساد، وهذا لا يدركه إلَّا الراسخون في العلم، فإنَّ الطريق إلىٰ جهنّم ممَهَّد بحُسْن النوايا، نعم الإخلاص أوَّل أصل من أصول دين الإسلام، ولكنْ شرطه العلم والفهم والإحاطة بأصول الإدراك، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، فهؤلاء قوم حَسُنَت نواياهم وقد وصفهم اللَّه بالأخسرين أعمالًا، وقال سبحانه: ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩]، وكما يقول النَّاس في أمثالهم: «**الدِّبْة التي قتلت صاحبها**» حيث حَسُنَتْ نيتها في كفّ أذىٰ الذباب عن صاحبها، فأدَّىٰ حبّها وحسن قصدها إلىٰ قتله، فإنَّ الحقائق تتغير بين المبنىٰ والمعنىٰ، بين القصود والألفاظ، وذلك في كل مناحي الحياة، في الحب والبغض، في المنافع والمفاسد، في الحلال والحرام، في الحق والباطل، في السّنة والبدعة، في الثواب والعقاب، كل تلك الأمور لا تستقيم للمرء إلا بتحقيق وفهم وإدراك المصلحة والمفسدة والإحاطة بتفاصيلها.

ونفس لفظة الإفساد ينطبق عليها هذا الفهم والإدراك، وقد أكثرت الكلام عليه، ولكن المقصود هنا: أنَّ عامّة النَّاس غير متحيرين ومتذبذبين في صفة الفساد، أمَّا المصلحة فتختلف فيها الأنظار والآراء، ومن هنا كان الشأن جللًا وخَطِرًا وشائكًا، لاسيما في سياق فقه الإدراك وعدمه، وأن التأمل الواعي في الأمور والتدبّر فيها، يثمر الإصابة في الحق، فاستكثر من ذلك أو ذَرْ.

واعلم -رحمك اللَّه وفَهَّمك ما ينفعك- أنَّ من سمات العقلاء وأهل الفكر الصائب السليم، وأصحاب التصور المدرك للمقاصد المصلحية، أنه لا ينبغي لأحد أراد الولوج والدخول في أمر مهم لطائفة من النَّاس، أن لا ينظر فيما أراد تنفيذه علىٰ أرض الواقع؛ حتىٰ يُلمَ بهذا الشأن إلمامًا يؤهله للدخول في ذلك

الأمر؛ وذلك بحسن التصور، وصحة الدراسة، والأخذ بأسبابها وشروطها، والنظر إلىٰ العواقب، ومعرفة العلل والموانع، حتىٰ يحدث له التوفيق والسداد والإصابة في الأمر، هذا هو حُسْن الاستيعاب والإدراك، وإلَّا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، ومن هنا حدث الزلل، إذْ هو -يعني: الزلل- نتاج التسرع وعدم دراسة الأسباب والنتائج والعواقب وقلة التحضير والدراسة، ومن لوازم ذلك ومقتضياته: فقد الثقة، والتشكيك في القدرة، والطعن في المنزلة والكفاءة، وفقد المنصب والصَيت، علىٰ حسب القدرة والعجز، والإصابة والخطأ، والقلة والكثرة في ذلك، والنظر إلىٰ الفوائد والمنافع المصلحية علىٰ أرض الواقع، ومن آثار ذلك كثرة الرجوع في الشئون التي تتَّخذ، فيحدث الاضطراب والبلابل والفتن والشُبهات، ويختلط الحابل بالنابل، ويعم الفساد في الأرض، وكل تلك الشئون أصلها ومنبعها من الخلل في منظومة الإدراك وتوابعها؛ وما كان ذلك كذلك إلَّا من النقص العلمي والتقصي والتحقيق في كل أمر أُريد الولوج فيه، وذلك عام في شئون الحياة، ومن يُرد اللَّهُ به خيرًا، يفقّهه في الدين.

وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد للَّه رب العالمين.

كتبه

الدكتور عيد أبو السعود الكيَّال